الفصل الأول

السيد جمال الدين الأفغاني

ولد السيد جمال الدين الأفغاني، العامل الجوهري الأول في إحياء حركة التجديد في مصر، عام 1839 في أسعد آباد بالقرب من كابل بأفغانستان،[8] وكان والده السيد صفدر[9] أميًّا فقيرًا مع أنه ينمي نسبه إلى السيد علي الترمذي المحدث المشهور،[10] ويرتقي إلى الحسين بن علي بن أبي طالب حفيد الرسول.

وعندما بلغ جمال الدين الخامسة من عمره، أخذ يتلقى العلم في مدرسة محلية حتى بلغ العاشرة، ثم واصل الدرس والتحصيل في أماكن متفرقة في إيران وأفغانستان، حتى إذا

---

[8] كما جاء في رواية جمال الدين ، أما الرواية الفارسية فتذهب إلى أنه ولد في قرية بهذا الاسم بالقرب من حمدان في إيران ، والسبب في تفضيله الانتساب إلى أفغانستان — إن صح أنه ولد في فارس — لا يمكن الخوض فيه إلا بطريق الحدس فقط — لقلة المعلومات التي وصلت إلينا عن نشأته الأولى ، ولاقتصارها على ما أمدنا به جمال الدين نفسه. على أن حسن الحظ يجعل المعلومات التي وقفنا عليها عن القسم الأخير من حياته كافية لمعرفة ترجمته منذ أن حل في مصر. ويقدر الأستاذ إ. ج. براون «الثورة الفارسية ص423» إن جمال الدين أراد أن يعرف بأنه أفغاني ليسهل حشره في زمرة السنيين من المسلمين ، وليتخلى عن الحماية الفارسية التي كان يشك في قيمتها.

مهما يكن الأمر في حقيقة مولده فقد عرف بالأفغاني — يقول بلانت في مذكراته بتاريخ 14 سبتمبر 1883 «الثورة الفارسية ص402 — هامش»: «إن أسرة جمال عربية احتفظت دائمًا بلغتها ، وكان يجيد الكلام بها إجادة تامة» ، وهذا يخالف ما ذكره محمد رشيد رضا. «المنار ج8 سنة 1905 ص389» من أن جمال الدين بالرغم من طلاقته لم يستطع التخلص من آثار نسبه الفارسي في كلامه العربي».

[9] أو صفتر كما ورد في التراجم العربية — انظر تاريخ ج1 ص27.

[10] توفي عام 279هـ الموافق لسنة 892م.

بلغ الثامنة عشرة، كان قد وقف على جميع العلوم الإسلامية المعروفة، وأجاد الكثير منها، كالنحو وفقه اللغة وعلوم البلاغة والتاريخ الإسلامي وعلوم الشريعة والتصوف والمنطق والفلسفة والطبيعيات وعلم ما بعد الطبيعة والرياضيات وعلم الهيئة والطب والتشريح إلى غيرها من مختلف العلوم.

وعرض له حينذاك سفر إلى الهند، حيث أقام نحو عام ونص، وأضاف في هذه المدة إلى ذخيرته بعض المعرفة بالعلوم والطرائق الأوربية وشيئًا من الإنجليزية، وكان يتقن الأفغانية والفارسية والتركية والعربية، ثم بارح الهند حاجًّا إلى مكة المكرمة، وطالت مدة سفره إليها حتى وافاها عام 1857، وبعد أن أتم فرائض الحج، عاد إلى أفغانستان والتحق بخدمة الأمير الحاكم دوست محمد خان، وسار في جيشه ولازمه في حصار وفتح «هراة» التي كان يحتلها ابن عم الأمير وصهره السلطان أحمد شاه.

ولما توفي محمد خان عام 1864 خلفه ابنه شير علي، ونشبت الحرب بينه وبين إخوته الثلاثة واندلع لهيبها، وانضم جمال إلى محمد أعظم أحد هؤلاء الإخوة، وقد ذاق حلاوة

النصر ومرارة الهزيمة مرات إلى أن انتهى الأمر إليه، فاتخذ جمال الدين كبيرًا لوزرائه.

وكان جمال الدين حينذاك في السابعة والعشرين، ولم تلبث الحرب أن تجددت مرة ثانية، وناصر الإنجليز الأمير شير علي وأمدوه بالمال، فظفر بأخيه واضطره إلى الفرار من البلاد، ووافاه أجله بعد وقت قصير.

ولم يجاهر الأمير الجديد جمال الدين بالعداوة، ولم يمسسه بسوء؛ وذلك لأنه كان سيدًا منسبًا ذا سلطان على العامة، ولكنه أضمر له الشر، فاستحسن جمال مبارحة البلاد، واستأذنه للحج مرة ثانية، فأذن له وسافر من أفغانستان عام 1869، واتجه إلى الهند فأكرمته حكومتها دون أن تبيح له الاشتغال بالسياسة أو مبادلة الرأي مع زعماء المسلمين، فلم يقم أكثر من شهر، ثم واصل السفر في باخرة من بواخر الحكومة إلى السويس، وانتقل منها إلى القاهرة ليمضي بها أربعين يومًا، وتردد على الجامع الأزهر خلال مدة إقامته فيها، وخالطه كثير من الأساتذة والطلاب، وحاضر من تردد منهم على محل إقامته.

وكان حينذاك قد تحول عن الحجاز عزمه، وتعجل بالسفر إلى الآستانة، فأكرم السلطان عبد الحميد وفادته إكرامًا بالغًا،

ورحب به العلماء وأصحاب المناصب السامية، وبدأ كعادته يمتزج في حمية بحياة الدوائر التي فتحت له صدرها، ولم يضع فرصة لإعلان آرائه وإذاعة تعاليمه، فما لبث أن علا ذكره وعظم نفوذه.

ولكن هذا أحفظ عليه شيخ الإسلام، وأثار في صدره الغيرة والحسد.

وفي أواخر عام 1870 دعاه مدير دار الفنون أو الجامعة التركية ليحاضر الطلاب في الحث على الصناعات،[11] ومع أن جمال الدين احتاط للأمر، واستوثق من رضى الكثيرين من أصحاب المناصب السامية عن خطابه قبل إلقائه، فإن شيخ الإسلام تمسك ببعض العبارات التي وردت به، واتهمه باستعمال عبارات منافية للدين ماسة بحرمته، ولهجت الصحف بذكر ذلك، وأكثرت من الكتابة فيه، وانبرى جمال الدين للرد عليها، فعظم الأمر حتى طلبت إليه الحكومة التركية مغادرة البلاد تسكينًا للخواطر، فرحل عنها إلى مصر ووافى القاهرة في 22 مارس سنة 1871، ولم تكن له عزيمة

[11] انظر مشاهير الشرق ج2 ص55، وانظر أيضًا ملخص المحاضرة لبراون في الثورة الفارسية ص6، شبه جمال المعيشة الإنسانية ببدن حي، وكل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن، وقال: إن روح هذا الجسم إما النبوة وإما الحكمة. وتمسك شيخ الإسلام بهذه العبارات، فاتهم جمال بأنه زعم أن النبوة صناعة، وأن النبي صانع واتهمه بأنه بقوله هذا جرد النبي من ميزته الوحيدة القائمة على أنه رسول الله الموحى إليه، على أن الدافع الحقيقي الذي حرك هذه الاتهامات هو من غير شك الغيرة من نفوذ جمال، مهما كانت آراؤه الحرة في نظر الشيوخ المحافظين، ويقول زيدان: إن ما أشار به جمال لتعميم المعارف أساء شيخ الإسلام؛ لأن بعض آرائه كانت تمس شيئًا من رزقه.

على الإقامة بها طويلًا، ولكنَّ رياض باشا الذي كان ناظر النظار لعهده، جعل الحكومة المصرية تجري عليه عشرة جنيهات[12] في الشهر، تقديرًا لفضله وإجلاله لمكانته، فاستماله هذا إلى الإقامة في مصر.

ولما ذاع نبأ وصوله، التفَّ حوله كثير من طلبة العلم المجدِّين، فقرأ لهم بعض الكتب العالية في الكلام والفلسفة وأصول الفقه والهيئة والتصوف، ثم وجه عنايته إلى إعداد جيل من الكتاب الناشئين ليذيعوا في الناس آراءه الجديدة، فحمل تلامذته المبرَّزين على العمل في الكتابة وإنشاء الفصول في الصحف، وولى وجهه بعد هذا شطر السياسة المصرية، وبذل جهدًا منقطع النظير في تنبيه البلاد إلى مضار التدخل الأجنبي في شئونها، وكشف عن سوءات الرقابة الأجنبية التي فرضت عليها، ولم تكتم مقالاته في الصحف عداءه للإنجليز، وظل نشاطه متصلًا نحو ثمانية أعوام.

وكان مما لا مفر منه أن يحدث بموقفه هذا المعارضة له، فقد قاوم العلماء المحافظون آراءه الطريفة، واتخذوا سبيلًا للطعن عليه، من قراءته للفلسفة التي كانت الدوائر

[12] مشاهير الشرق ج2 ص56 «نزلًا أكرمته به لا في مقابلة عمل».

المحافظة تحرم دائمًا النظر فيها، وتعدها عدوة للدين الصحيح.[13]

وأثارت أعماله السياسية شبهات الحكومة في نواياه، ورأيت على وجه خاص الموظفين البريطانيين، وكانت مصر حينذاك قد أخذت شئونها المالية تتدهور في سرعة، وأشرفت على الإفلاس، فأدى هذا إلى التدخل الأوروبي، ثم إلى عزل الخديوي إسماعيل الذي أسرف كثيرًا في صبغ البلاد بالصبغة الأوروبية، وانتهت جهوده بهذه الخاتمة السيئة، وخلفه ابنه توفيق في 25 يونيه سنة 1879.

وكانت عناصر التحرير التي نشر لواءها جمال الدين، وقوَّى سلطانها في البلاد، تتوسم إنفاذ إصلاحات عظيمة على يدي توفيق، ويظهر أنه قبل ارتقائه إلى العرش كان قد عاهد جمال الدين وخاصته، على أنه إذا آل إليه الأمر، أيدهم في جهودهم الإصلاحية، ولكنه لم يكد يرتقي العرش حتى أصدر أمره في سبتمبر سنة 1879 بإخراج جمال الدين من

[13] ذكر محمد رشيد رضا «المنار ج2 (1899) ص245» أن الشيوخ الجامدين أخذوا عليه ثلاثة أمور أساسية ، علمه بالفلسفة وشموسه عن التقيد ببعض العادات الدينية التي أصبحت في نظر العامة جزءًا من الدين وعدم تدين الكثير من تلاميذه ، ويرد رشيد رضا على التهمة الثالثة ، فيقرر أن منشأ هذا لم يكن اتصالهم بجمال الدين ، وإنما كان نتيجة لنشأتهم الأولى.

مصر هو وتابعه الفارسي المخلص أبو تراب،[14] ففارق مصر إلى الهند وأقام في حيدر آباد الدكن، وهناك صنف بالفارسية كتابه «في الرد على مذهب الدهريين»، وهو المصنف الوحيد الذي كتب له البقاء من دون سائر مصنفاته المبسوطة، وقد دافع فيه عن الإسلام وردَّ كيد المتهجمين عليه.[15]

وفي عام 1882، كانت حركة الشباب المصريين التي نماها جمال الدين، قد انتهت إلى الفتنة العرابية وما تلاها من احتلال بريطانيا لمصر، وعندما كانت الفتنة قائمة في مصر على ساق وقدم، دعته حكومة الهند من حيدر آباد، وألزمته بالإقامة في كلكتا، وأقامت عليه الرقباء، حتى إذا خفتت الحركة الوطنية المصرية، أباحت له الحكومة مغادرة الهند،

---

[14] ذكر تعليلان لهذا العمل الذي لم يكن منتظرًا من توفيق باشا ، فقد علله محمد رشيد رضا «المنار ج8 ص404» بأنه بمجرد ارتقاء توفيق إلى الأريكة التي خلت من أبيه أخذ جمال وأصدقاؤه يلحون في إنجاز الوعود السابقة ، وعلى الأخص إقامة الحكم النيابي الذي كان حجر الزاوية لجميع الإصلاحات التي أملوا في تحقيقها.

على أن بذل الوعود قبل تقلد الحكم سهل يسير ، وإنجازها بعد ذلك أصعب ، ويظهر أن توفيق باشا وجد أن التخلص من المصلح المشاغب أوفق من إنجاز الوعود.

أما براون ، فيرى «الثورة الفارسية ص8) أن الحكومة البريطانية رابها نشاط جمال الدين السياسي فحملت الخديوي الشاب على تخليص البلاد من ذلك المهيج الخطر.

وربما كان هذا التعليلان يتمم أحدهما الآخر — انظر مقدمة رسالة التوحيد ص29 ، وتاريخ مصر السري طبعة 1922 ص295 — 296.

ونجد أن قلم رشيد رضا عندما كتب تاريخ محمد عبده في سنة 1931 — كان يستمتع بنصيب أكبر من الحرية التي أتيحت له في سنة 1905 ، فأيد التعليل الثاني «تاريخ ج1 ص76» ، بل قرر أن وكيلي فرنسا وإنجلترا اتفقا على إقناع الخديوي بمضرة أي إصلاح في الحكومة.

[15] يذكر س. ج. ولسون في كتابه «الحركات الحديثة بين المسلمين» ص71 أن جمال صنف كتابًا في الخلافة كان نصيبه المصادرة.

فذهب إلى لندن وبقي بها أيامًا قليلة ثم بارحها إلى باريس، وأقام بها ثلاث سنوات.[16]

ولما وصل باريس، استقبل عهدًا جديدًا للدعاية الدولية النشيطة، فنشر آراءه السياسية في الصحف الفرنسية، وكان حينذاك قد أحسن لغة الفرنسيين، وأقبل القراء على مقالاته، وصادفت انتباهًا شديدًا من الحكومات الأوربية ذات المصالح في البلاد الإسلامية، وبخاصة الحكومة البريطانية.

وفي عام 1883، ثار بينه وبين أرنست رينان حوار في جريدة الديبا في موضوع «الإسلام والعلم»، وكانت المناقشة تدور بينهما، حول صلاحية الإسلام للإصلاح وقابليته للمدنية الحديثة.

وفي العام التالي دعا إليه صديقه وتلميذه الشيخ محمد عبده، وكان حينذاك منفيًّا من مصر لاشتراكه في فتنة عرابي، فوافاه إلى باريس وبدءا معًا في إصدار صحيفة عربية اسمها «العروة الوثقى»، كان غرضها دعوة المسلمين

[16] ذكر ولسون في كتابه «الحركات الحديثة» (ص72) أن جمال الدين سافر في ذلك الوقت إلى أمريكا ليتجنس بالجنسية الأمريكية ، ولكنه لم يقم بها ، ويظهر أنه اعتزم ذلك الأمر ، غير أنه من المشكوك فيه أن يكون قد أنفذه ، ولم يشر براون وهو صديق شخصي لجمال إلى زيارته لأمريكا في ترجمته له ، ويقول «بلنت» وهو أيضًا صديق شخصي لجمال «تاريخ مصر السري ص120»: «لقد حاولت أن أقف على أحوال جمال في أمريكا التي يقال: إنه سافر إليها بعد تجواله عامين في الهند» ، ويقول ميشيل في مقدمة الرسالة ص22: «إن رسائله التي لم تنشر والتي أتيح لنا الاطلاع عليها تدل على أنه لم يكن من الممكن أن يقوم بهذه الرحلة».

إلى توحيد جهودهم لمكافحة الاعتداء الأوروبي ومناهضة الاستعمار.

وكان جمال الدين مديرًا للصحيفة يرسم سياستها المعادية للإنجليز، أما محمد عبده فكان محررها الذي كتب جميع المقالات التي نشرت فيها،[17] وظهر العدد الأول منها في 5 جمادى الأولى سنة 1301 الموافق 13 مارس سنة 1884،[18] ونشر من الجريدة ثمانية عشر عددًا، كان آخرها ما صدر في 16 أكتوبر 1884.[19]

ومنعت بريطانيا العظمى دخولها إلى الهند ومصر، وهما البلدان اللذان كان غرض الصحيفة الأول التأثير فيهما، واشتدت الحكومة البريطانية في إعنات من كانت تصل إليهم[20] نسخ منها.

ومع أن الصحيفة لم يكتب لها البقاء طويلًا، فقد عظم تأثيرها في العالم الإسلامي أجمع، ووفقت في إيقاظ روح الوطنية في الأمم الإسلامية المتأخرة.[21]

---

[17] تاريخ ج2 ص229 — انظر أيضًا المنار ج8 ص455 والرسالة ص35 من المقدمة.

[18] تاريخ ج2 ص229.

[19] المنار ج8 ص462، وتاريخ ج1 ص380.

[20] المنار ج8 ص462 — مشاهير الشرق ج2 ص57.

[21] يرى محمد رشيد رضا «المنار ج8 ص455» أنه لو هيئ لهذه الصحيفة الاستمرار لأحدثت نهضة عامة في الإسلام، فقد كانت لسان جماعة تسمى بنفس هذا الاسم ألفها جمال من مسلمي الهند ومصر وشمال أفريقيا

وبعد أن وقفت عن الظهور، ذهب جمال الدين إلى لندن، ولم تطل إقامته بها، وبادل ساسة البريطانيين الرأي في ثورة المهدي التي كانت قائمة في السودان،[22] ثم انتقل من لندن إلى موسكوفسان بطرسبرج، واستقبل في البلدين بالحفاوة والترحاب، وكان لمقالاته عن سياسة أفغانستان وإيران وتركيا وبريطانيا أثر عميق في الدوائر السياسية، وطال بقاؤه في الروسيا نحو أربع سنوات.[23]

وسوريا ، وكان غرضها وحدة المسلمين وإيقاظهم من سباتهم وتنبيههم إلى المخاطر التي كانت تهددهم وإرشادهم إلى سبل مواجهتها «المنار ج8 ص455» «تاريخ ج1 ص283 و306» وكان غرضها العاجل تحرير مصر والسودان من الاحتلال البريطاني ، وقد أنشأ جمال في مكة أيضًا جمعية أم القرى لتدعو إلى الجامعة الإسلامية تحت لواء خليفة واحد يسيطر على العالم الإسلامي أجمع ، وقد قضى السلطان عبد الحميد على هذه الجمعية بعد عام واحد من تأسيسها «الثورة الفارسية ص15» «والحركات الحديثة ص72».

ويدلل جولد زيهر على بقاء نفوذ العروة الوثقى «انظر هذه المادة في دائرة المعارف الإسلامية» بأن مقالاتها طبعت طبعة حديثة في سنة 1910 ، ثم طبعت مرة أخرى في سنة 1928.

وهناك دليل آخر هو ما رواه المنار ج12 1921 (ص525) من أنه عندما نشرت إحدى المقالات في صحيفة يومية بتوقيع أحد علماء مصر المبرزين ، تبين كثير من الناس ، حتى في القرى ، أنها إحدى مقالات محمد عبده التي نشرت من قبل في العروة الوثقى.

[22] كان ذلك في عام 1885 «الثورة الفارسية ص402 و403 ، ومشاهير الشرق ج2 ص57 والمنار ج8 ص457» ويروي المنار أن قرار وزير خارجية بريطانيا بالعدول عن إعادة فتح السودان يرجع الفضل فيه إلى سعي جمال ومحمد عبده.

أما و. س. بلنت «الثورة الفارسية ص403» فيروى أن جمال قدم إلى إنجلترا ليتبادل الرأي في إمكان الاتفاق مع المهدي ، ويذكر أنه في وقت ما اتفق على أن تصحب جمال بعثة بريطانية خاصة إلى الأستانة ، وأن يبذل نفوذه في بلاط عبد الحميد للوصول إلى اتفاق يتضمن جلاء بريطانيا عن مصر وتحالفها مع تركيا وإيران وأفغانستان ضد الروسيا ، ولكن عدل في اللحظة الأخيرة عن ذهابه بعد أن حجزت تذاكر سفره ، فاشتد به الغيظ وسار إلى موسكو ، وارتمى في أحضان الذين كانوا يدعون إلى التحالف التركي الروسي ضد إنجلترا.

[23] انظر الفقرة التالية. إذا سلمنا بسفره مرتين إلى إيران فإن إقامته في الروسيا تكون منقسمة إلى مدتين يتخللهما زيارته الأولى إلى إيران.

وفي عام 1889، بينما كان في مهمة سرية لشاه الفرس في ميونخ، قابل الشاه ناصر الدين الذي كان يزور أوروبا حينذاك، فحسن له الشاه مرافقته إلى إيران ليجعله كبيرًا لوزرائه.

وتذهب إحدى الروايات، إلى أن هذه هي المرة الثانية التي عهد فيها بالوزارة إلى جمال الدين في بلاط الشاه، أما المرة الأولى فقد كانت في سنة 1886 عندما أبرق إليه الشاه ليتوجه إلى إيران، فلبى الدعوة، وأكرم الشاه وفادته وعينه وزيرًا للحرب، وكثر أنصاره ومريدوه لغزارة علمه، وسحر بيانه، وفصاحة لسانه، وغيرته القوية على مصلحة البلاد، واشتد نفوذه وقوي سلطانه لأعلى المستنيرين وأصحاب المناصب فحسب، ولكن على عامة الناس أيضًا، فخامر الشاه ريب من أمره، مخافة أن يكون وراء ذلك ما يخشى منه على سلطانه، وتنكر له الشاه وأحسن جمال الدين بهذا التغير، فاستأذن الشاه لتبديل الهواء، فأذن له وسافر إلى الروسيا.

ولما عاد إلى إيران ثانية في سنة 1889 — بعد أن استقدمه الشاه إليها — تلقاه الناس باعتباره زعيمهم المعبر عن أمانيهم، والمفصح عن آمالهم في تحسين حال البلاد السيئة وتخفيف آلامها، ثم عاودت الشاه شبهاته الأولى،

وملكت عليه زمام نفسه، وأحس جمال بالأمر فاستأذن في مغادرة البلاد، وأبى عليه الشاه ذلك في غير مجاملة، فاحتمى بمقام شاه عبد العظيم حيث أقام سبعة أشهر، وفسد الأمر بينه وبين الشاه، وجاهر جمال بالدعوة إلى خلعه، ونما نفوذه في جميع الطبقات وكان لاثني عشر من تلاميذه ضلع في الثورة الأهلية التي نشبت في إيران فيما بعد، واغتال واحد منهم الشاه في سنة 1896.[24]

وانتهى الأمر بين الشاه وجمال الدين بأن هاجم الشاه مقام عبد العظيم، واعتدى على حرمته، وقبض على جمال الدين وهو يتقلَّى على فراش المرض، وأبعده إلى حدود الدولة العثمانية.

ولسنا نعرف تاريخ إبعاده على وجه التدقيق، وإن كان من الراجح أنه كان في أواخر سنة 1890، أو أوائل سنة 1891.[25]

وبقي جمال بالبصرة إلى أن دب فيه دبيب العافية، ثم سافر إلى لندن وانتقل منها إلى الآستانة سنة 1893، وطال

---

[24] اعترف القاتل مرزا رضا الكرماني في استجوابه بأن جمال وحده كان واقفًا على سر خطته لقتل الشاه «انظر الثورة الفارسية ص67» ، وعندما كان جمال في لندون في الأستانة هاجم الشاه في عنف بمقالاته وخطبه ، ولما اغتيل الشاه طلبت الحكومة الفارسية تسليم جمال وثلاثة آخرين ممن اشتبه في أن لهم ضلعًا في المؤامرة ، فرفض السلطان عبد الحميد تسليم جمال ، وسلم الثلاثة ثم قتلوا سرًّا في طبريز «الثورة الفارسية ص11».

[25] الثورة الفارسية ص11. يقول جمال «تاريخ ج1 ص55»: إنه أعمل الحيلة ، وذهب إلى مقام عبد العظيم ؛ لأن مقامه حرم من دخله كان آمنًا ، ثم يذكر أنه بعد أن أقام فيه سبعة أشهر خرج منه بمحض إرادته على ما يفهم من ظاهر العبارة ، وإن كانت غير قاطعة في الدلالة على هذا ، بل تحتمل قبول الرواية كاملة كما أوردناها.

مقامه فيها إلى أن وافته المنية، ومع أنه كان موضع رعاية السلطان عبد الحميد وتكريمه، يعيش من فيض جوده، إلا أنه كان في الواقع أسيرًا في قفص من ذهب،[26] وكانت وفاته في 9 مارس سنة 1897 بعد أن داهمه السرطان في فكه، وامتد منه إلى عنقه،[27] واحتفل بجنازته ودفنه في مقبرة المشايخ بالآستانة.

لقد عمت جهود هذا الرجل النابه البلاد الإسلامية كلها، والممالك الأوربية ذات الصلات بها، فأفغانستان وفارس وتركية ومصر والهند اتصلت به جميعًا، وأحست بأثره القوي الذي هزها هزًّا عنيفًا، فهو الذي أوحى بالثورة الفارسية التي بدأت بالهياج ضد احتكار التنباك في سنة 1891، وانتهت بوضع دستور 5 أغسطس سنة 1906، تعهدها في نشأتها الأولى بالنصح والإرشاد ثم والاها بالتشجيع والتأييد.[28]

---

[26] الرسالة ص2 من المقدمة.

[27] ذهب كثير من أصدقاء جمال الدين من الفرس إلى أن المرض الذي سبب موته ، ولو أنه شابه السرطان مشابهة سطحية إلا أنه في الواقع كان نتيجة لتسمم سرى إلى الشفة من مسواك مسمم ، وينكر هذا أكثر الأتراك «الثورة الفارسية ص12 — 96» ، وقد ورد في ترجمة جمال التي طبعت في مقدمة رسالة «القضاء والقدر» ذكرًا صريحًا لسوء العلاج.

[28] لقد حرك كتاب من جمال الدين الحاج ميرزا حسن الشيرازي أحد رؤساء المجتهدين الفرس لإصدار فتواه بتحريم زرع التنباك ما دام امتياز الاحتكار قائمًا ، وخضعت لهذه الفتوى أعناق العباد ، وقوطع التنباك حتى اضطرت الحكومة أخيرًا مسوقة باستياء الناس إلى إبطال ذلك الاحتكار المبغوض ، وظهرت نتائج التحالف بين العلماء والعامة في مقتل الشاه وكبير وزرائه ومنح الدستور «انظر ترجمة كتاب جمال إلى المجتهد ومقالين له أيضًا عن حال إيران ترجمت من العربية عن مجلة ضياء الخافقين ، ونشرت في الثورة الفارسية ص15» ، وكتاب الثورة الفارسية تاريخ عجيب كامل للثورة الفارسية منذ نشأتها.

ولما كان مقيمًا في الآستانة، مهد بتهييجه المتواصل للحركة التركية الصغيرة الموفقة التي قامت سنة 1908.

وكان الدافع الأول للحركة المصرية الوطنية، التي ساء ختامها بفشل الفتنة العرابية، ولم يكن أثره أقل من هذا في النهضة العقلية والدينية التي تمثلت في محمد عبده، كما سنبينه فيما بعد.

يقول ميشيل في ترجمته لمحمد عبده: «أيان ذهب كان يترك وراءه ثورة تغلي مراجلها، ولسنا نعدو الحق أو نكون مبالغين إذا قررنا أن جميع الحركات الوطنية الحرة وحركات الانتقاض على المشاريع الأوربية التي نشاهدها في الشرق منذ عشرين عامًا ترد أصولها مباشرة إلى دعوته».[29]

كانت الغاية التي يرمي إليها جمال الدين، والغرض الأول من جميع جهوده التي لا تعرف الكلل، ومن إثارته للنفوس وتهييجه المتواصل للناس — توحيد كلمة الإسلام، ولمَّ شمل المسلمين، في سائر أقطار العالم في حوزة دولة واحدة تحت ظل الخليفة الأعظم، لا يشاركه في الحكم أحد، كما كانت الحال في أيام الإسلام المجيدة وعصره الذهبي، وقبل أن

انظر خلاصة الحوادث أيضًا في «الحركات الحديثة ص242 — 248».

[29] الرسالة ص23 من المقدمة.

توهن منه الفرقة والانقسام، وقد باتت أقطار المسلمين غارقة في وهدة الجهل واليأس، فأصبحت فريسة للاعتداء الأوربي.[30]

وقد آلمه أشد الألم أن يرى الأمم الإسلامية يضعف أمر هان وترثُّ قواها، وكان يعتقد أنها لو نفضت عن نفسها كابوس الاحتلال الأجنبي، وتحررت من تدخل الدول الأجنبية في شئونها، وصلح حال الإسلام وتوافق مع مقتضيات الحياة في العصر الحاضر، لأصبح المسلمون قادرين على تدبير أمورهم تدبيرًا حسنًا دون أن يعتمدوا على الأمم الأوربية أو يصطنعوا وسائلها.[31]

وكان يرى أن الإسلام — في جميع المسائل الجوهرية — دين عام للعالم أجمع، قادر تمام القدرة بما فيه من قوة روحية على ملاءمة الظروف المتغيرة في كل جيل.

وكان من خاصة مزاج الرجل، أن الوسائل التي تخيرها لتحقيق غاياته، كانت وسائل الثورة السياسية، فقد خيل إليه

---

[30] مشاهير ج2 ص61 — الحركات الحديثة ص72 — الثورة الفارسية ص14 — 15 يصحح محمد رشيد رضا «تاريخ ج1 ص73» رواية مشاهير الشرق التي ذهبت إلى أن جمال كان عظيم الولاء للخلافة العثمانية فيقول: «إن غرضه كان ترقية دولة إسلامية أية دولة كانت فبدأ بمصر ، ولما أخفقت خططه فيها تعلقت آماله بفتنة المهدي في السودان ، ثم ببلاد إيران وأخيرًا بالدولة العثمانية». انظر أيضًا ترجمة محمد عبده لجمال وكلامه على أغراضه «تاريخ ج1 ص34».

[31] انظر جولدزيهر ص321 — الرسالة ص23 و30.

أنها أسرع الطرق وآكدها في تحرير الشعوب الإسلامية وتغذيتها بالحرية الضرورية لتنظيم شئونها، أما وسائل الإصلاح التدريجي والتعليم، فكان يرى أنها بطيئة جدًّا غير محققة العاقبة.

كان يريد أن يرى قبل موته[32] تحقيق النتائج، فكافح لقلب النظام القائم، وكان يرى جواز خلع وقتل أمراء المسلمين، الذين يشجعون الاعتداء الأوروبي، أو يرضون عنه، فيقيمون بذلك الحوائل بين الناس وبين خلاصهم على ما يرجون.[33]

ومع هذا فقد كان الجميع غاياته المتطرفة، وللوسائل التي يصطنعها وجه إنشائي يبدو واضحًا جليًّا في أعماله، وينبغي ألا نغفل حسابه. كان يحيى بالرجاء الصادق في تجديد الإسلام، والأمل القوي في إمكانه، ذلك الأمل الذي كان يلهب النفوس بعدواه. [34]

---

[32] انظر المنار ج8 ص400 — الرسالة ص23.

[33] قال جمال مرة في حديث له مع الأستاذ براون: «لا أمل في الإصلاح قبل قطع ستة أو سبعة رءوس» وسمي بالاسم شاه العجم وكبير وزرائه ، وكلاهما قتل بعد ذلك «الثورة الفارسية ص45 و28» ، ويقول بلنت في تاريخه السري لمصر (ص95 و101): إنه في ربيع عام 1879 كثرت المناقشة بين أنصار جمال في الوسائل التي يمكن بها خلع الخديوي إسماعيل أو في اغتياله إذا استعصى خلصه. وروي عن كرومر «مصر الحديثة ج2 ص181 هامش» أن محمد عبده قال: إن الكلام دار في خطة معينة لاغتياله لم تنفذ لعدم وجود الشخص الذي يتكفل بذلك.

[34] انظر: الثورة الفارسية ، ص29 — ميشيل مقدمة الرسالة ص23.

وكانت جهوده في عقد أواصر الألفة والوحدة بين أهل السنة والشيعة، تعتمد على التوفيق الودي وعلى التسامح.[35] ولهذا خطره السياسي مع دلالته على روح التسامح الديني الذي كان يدرك ضرورته لرأب الصدع، ولم الشمل والقضاء على الفرقة التي قدم عهدها في العالم الإسلامي.

وكان علمه الغزير بجميع المعارف الإسلامية قد كسب له احترام العلماء وولاءهم في الأقطار الإسلامية التي أقام بها، وجذب إلى حظيرته طوائف من الطلاب المقبلين على العلم، المجدِّين في تحصيله، فعلمهم طرائقه في التوفيق بين الأوضاع التاريخية للدين والفلسفة في الإسلام وبين نتائج الفكر العلمي الحديث.

وكان التفاهم بين شيوخ مصر وبينه لا سبيل إليه، ولا حيلة فيه، فأدَّى موقفهم هذا منه — كما لاحظ محمد رشيد رضا —[36] إلى قلة تلاميذه ممن عنوا بدرس العلوم الدينية، وظهرت النهضة الأدبية في طبقة المطربشين أو الطبقة المتفرنجة.

---

[35] انظر: الثورة الفارسية ، ص30 — الحركات الحديثة ص32.

[36] انظر: المنار جـ2 (1899) ، ص246.

ومع أن جمال الدين عني عناية فائقة بالإصلاح التعليمي والديني، فقد كانت نفس الأسباب التي ذكرناها، داعية إلى قلة من أثار في نفوسهم السعي في تحقيق هذه الاصطلاحات.

ومن الميسور أن نفهم كيف أن دعوته السياسية المتطرفة وجدت أرضًا خصبة، وأفئدة متحفزة لتلبيتها بين شباب الوطنيين الذين لم يهيئ لهم ميدان الهياج السياسي وسيلة سريعة وأداة سهلة لتحقيق الاستقلال القومي فحسب، بل هيأ لهم فوق ذلك الفرصة للإفصاح عن العواطف الصحيحة، وحي التفكير العميق، بينما نجد أن الإصلاحات الأساسية التي نادى بها ودعا إليها، والتي كان ينبغي لها قسط أوفر من الهدوء والاتزان، قل أنصارها ومؤازروها.

على أنَّ آراءه الإنشائية التي كانت حجر الزاوية في تعاليمه، يبدو أثرها واضحًا كل الوضوح في حياة محمد عبده وعمله، وهو أحد تلاميذه، وقد تشرب روح أستاذه تشربًا عميقًا.

وقد أورد جمال الدين في ختام كتابه «الرد على الدهريين»، في فصل عنوانه «الأمور التي تتم بها سعادة

الأمم».[37] مثلًا للجانب البنائي من تعاليمه. ويتضمن هذا الفصل الموجز كثيرًا من آرائه الأساسية التي بعثها محمد عبده فيما بعد. وسنلخصه فيما يلي لأن له بعض الخطر لاتصاله بالأستاذ وتلميذه معًا.

يقول جمال الدين: إن نيل الأمم للسعادة مشروط بأمور لا يتم إلا بها:

الأول: صفاء العقول من كدر الخرافات وصدى الأوهام. والإسلام يقتضي ذلك لأن أول ركن بني عليه الدين الإسلامي، صقل العقول بصقال التوحيد، وتطهيرها من لوث الأوهام، وخلع كل عقيدة بأن اللّه (جل شأنه) ظهر أو يظهر بلباس البشر، أو حيوان آخر، أو أن تلك الذات المقدسة. نالت في بعض أطوارها شديد الآلام، وأليم الأسقام لمصلحة أحد من الخلق.

الثاني: أن تكون نفوس الأمم مستقبلة وجهة الشرف، طامحة إلى بلوغ منه، بأن يجد كل واحد من نفسه أنه لائق بأية مرتبة من مراتب الكمال الإنساني، ما عدا رتبة النبوة فإنها بمعزل عن المطمع، وإنما يختص اللّه بها من شاء من

[37] الرد على الدهريين – ترجمة الشيخ محمد عبده – من الفارسية إلى العربية وطبع في المطبعة الرحمانية بالقاهرة سنة 1925.

عباده، فإذا أخذت نفوس الناس حظها من هذه الصفة، أعنى الإقبال على وجوه الشرف، تسابق كل مع الآخر في مجالات الفضائل وتمادت بهم المجاراة إلى محاسن الأعمال.

إن دين الإسلام فتح أبواب الشرف في وجوه الأنفس، وكشف لها عن غايته، وأثبت لكل نفس صريح الحق في أي فضيلة.

وليس الإسلام كدين (برهما)، الذي قسم الناس إلى أربعة أقسام وقرر لكل منزلة من كمال الفطرة لا يجاوزها، ولا هو كاليهودية التي تخاطب شعب إسرائيل بالكرامة والإجلال وتذكر غيرهم بالتحقير والإهانة، ولا هو كالمسيحية التي تذهب إلى أن رؤساء الدين أقرب إلى اللّه من سائر البشر، وأن كل نفس وإن بلغت من الكمال ما بلغت، ليس فيها ما يؤهلها إلى التقرب إلى اللّه بغير وساطة الرئيس الديني.

الثالث: أن تكون عقائد الأمة، وهي أول رقم ينقش في ألواح نفوسها، مبنية على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة. وأن تتحامى عقولهم مطالعة الظنون في عقائدها، وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها. وهذا (كيزو) الفرنسي صاحب تاريخ التمدن قال: إن من أشد الأسباب أثرًا

في سوق أوروبا إلى تمدنها — ظهور طائفة في تلك البلاد قالت: إن لنا حقًّا في البحث عن أصول عقائدنا وطلب البرهان عليها. والدين الإسلامي يكاد يكون متفردًا من بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون، هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم، وكلما خاطب، خاطب العقل، وكلما حاكم، حاكم إلى العقل.

وقلما يوجد من الأديان ما يساويه أو يقاربه في هذه المزية. ومن الأديان الظاهرة ما بنى أعظم أركانه على أصل الكثرة في الواحد أو الوحدة في الكثير، وأن الواحد يكون أكثر والكثير يكون واحدًا، مما تنبذه بداهة العقل، فلما أنكر العقل أصل هذا، أجمع أهل الدين على أنه فوق نظر العقل، فلا ينال الفكر دركه لا بالكنه ولا بالوجه ولا يهتدي الدليل عليه.

الرابع: أن يكون كل أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة، وطائفة أخرى تقوم على النفوس تتولى تهذيبها، وتثقيف أودها، لأنني الأولى في مكافحة الجهل، وتنوير العقول بالمعارف الحقة، وتدأب الثانية على الكشف عن الأوصاف الفاضلة وحدودها، فإن الشهوات النفسية ليس لها من ذاتها حد تفق عنده، ولا لرغائب الأنفس غاية تنقطع عندها، فإن فقد من بين الناس مقوم النفوس ومعدل

الأخلاق، طغى سلطان الشهوة واندفع إلى الحيف والأجحاف، وأن من أهم الأركان الدينية في الديانة الإسلامية هاتين الفريضتين (نصب المعلم ليؤدي عمل التعليم، وإقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر).

والإسلام هو الدين الوحيد التي تتم به سعادة الأمم.

فإن قال قائل: إن كانت الديانة الإسلامية على ما بينت، فما بال المسلمين.

على ما نرى من الحال السيئة والشأن المحزن؟ فجوابه هو النص الشريف: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [سورة 13، آية 12].

لقد صور شخصية جمال الدين وأثرها تصويرًا موجزًا مؤرخان، أحدهما عالم عن كتاب الغرب، والآخر من كتاب الشرق.

أما أولهما فهو الأستاذ إ.ج. براون الذي يقول في جمال الدين: «إنه كان رجلًا ذا خلق قوي، غزير العلم موفور النشاط، لا يجد الوهن إليه سبيلًا، جريئًا مقدامًا.

وكانت فصاحته لا تجارى خطيبًا كان أم كاتبًا. وكانت لطلعته هيبة في النفس وعظمة وجلال.

كان فيلسوفًا وكاتبًا وخطيبًا وصحافيًّا، لكنه كان فوق ذلك سياسيًّا، وكان في نظر المعجبين به وطنيًّا عظيمًا، أما خصومه فكانوا يعدونه مشاغبًا خطرًا».[38]

أما الترجمة الثانية فصاحبها جورجي زيدان المؤرخ السوري، وقد ذكرها في كتابه «تراجم مشاهير الشرق»، وبعد أن قرر: «أن الغرض الذي كان جمال يصوب نحوه أعماله، والمحور الذي كانت تدور عليه آماله توحيد كلمة الإسلام» يقول: «إنه قد بذل في هذا المسعى جهده، وانقطع عن العالم من أجله فلم يتخذ زوجة ولا التمس كسبًا. ولكنه مع ذلك لم يتوفق إلى ما أراده فقضى ولم يدون من بنات أفكاره، إلا رسالة في نفي مذهب الدهريين، ورسائل متفرقة في مواضيع مختلفة، قد تقدم ذكرها، ولكنه بث في نفوس أصدقائه ومريديه روحًا حية، حركت هممهم وحددت أقلامهم، فانتفع الشرق وسوف ينتفع بأعمالهم».[39]

---

[38] الثورة الفارسية ، ص 2 — 3.

[39] مشاهير الشرق ، جـ2 ، ص61.